المحاضرة السادسة: الثورة الصناعية (الجزء الثاني)

**النتائج الاجتماعية والسياسية**

1. النتائج الاجتماعية

تمثلت هذه النتائج في مجموعة من المظاهر نجملها في الآتي :

* ارتفاع أعداد السكان بشكل ملحوظ[[1]](#footnote-1) بسبب تحسن الوضع المعيشي للساكنة إذ سجل الرقم سنة1750 حوالي 700 مليون نسمة في حين انتقل سنة 1800 إلى 900 مليون نسمة.
* تنامي ظاهرة الهجرة الداخلية (من القرى نحو المدن) أو الخارجية (بين البلدان الاوربية أم خارج القارة صوب المستعمرات.)
* حفاظ بعض البيوتات الارستقراطية، رمز النظام القديم، على مكانتها الاجتماعية على مدار القرن التاسع عشر بفضل تأقلمها السريع مع رياح التغيير التي حملتها البورجوازية على ضوء المبادئ والأساليب الرأسمالية، وبفضل مساهمتها أيضا في بعض الأنشطة الاقتصادية والمالية ودخولها في مصاهرات مع بعض العائلات البورجوازية، ومن ثمة استطاع أفرادها تقلد مناصب مهمة في أجهزة الدولة الحديثة.

أما على مستوى الهرم الاجتماعي، فقد أعادت الثورة الصناعية الاصطفافات داخل المجتمع فالبورجوازية التي اعتبرت افرازا لانتصار الرأسمالية كانت في حقيقة الأمر سائدة قبل الثورة الصناعية، إنما أدت رياح التغيير التي حملها القرن التاسع عشر إلى الاستجابة لمطالب هذه الطبقة الصاعدة بعد إلغاء قانون الامتيازات الذي كان سائدا في العهد القديم. لذلك أصبح التمايز بين أفراد المجتمع على أساس اقتصادي محض لا على اساس الامتيازات المستمدة من الشرف أو الارض.

لذلك، عرفت هذه الطبقة نموا تصاعديا وتعددت مجالات استثمارها ويمكن تقسيمها إلى ثلاث فئات:

البورجوازية الكبيرة: وهي التي سيطرت على الأنشطة الصناعية والتجارية والأبناك والاراضي الفلاحية ودور النشر والصحافة

البورجوازية المتوسطة: وهي تلك التي تخصصت في تسيير بعض المؤسسات الاقتصادية وامتهنت الاعمال الحرة مثل الطب والصيدلة والهندسة المعمارية والمحاماة.

وقد حدد غيزو خصائص الطبقة الوسطى بالقول:" هذه الطبقة التي لا يعيش أفرادها على المراتب والاجر، والتي ينبض الفكر عندها وتجيش الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ، والتي تستطيع أن تخصص جانبا ملحوظا من وقتها لبحث القضايا العامة، أي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات الماضية، وبين الطبقة المنصرفة للعمل اليدوي"[[2]](#footnote-2).

البورجوازية الصغرى: تشكلت من الموظفين والمستخدمين وصغار الفلاحين وتجار التقسيط والحرفيين المتخصصين

الطبقة العاملة: تعد هذه الطبقة نتاجا تاريخا وموضوعيا للثورة الصناعية وللمدينة الصناعية أي للمعمل تحديدا، عكس البورجوازية التي كانت سائدة من ذي قبل.

ضمت هذه الطبقة في تركيبتها عدة فئات، تقاسمت هم العداء للبورجوازية، منها الحرفيون وعمال البيوت والعمال المؤهلون وغير المؤهلين. وتكدس أفرادها في تجمعات عمالية دون أي تخطيط مسبق قرب المدن الصناعية نظرا للاكتساح السريع لأعداد غفيرة من القرويين ،الذين أجبروا عن هجرة أراضيهم، للمجالات الحضرية بحثا عن فرصا عمل داخل الوحدات الانتاجية الجديدة.

وعاش أفراد هذه الطبقة ظروفا مزرية لم يتردد كارل ماركس في نعت العمال في المصانع "بالعبيد" بالنسبة للسيد الرأسمالي وللحضارة الصناعية، فهم بمثابة " جنود للصناعة خاضعين لرقابة جهاز من ضباط – الصف والضباط، فهم ليسوا فقط عبيدا للطبقة البورجوازية والدولة البورجوازية، إنما هم في كل يوم وفي كل وقت عبيدا للآلة. فقد كانت أماكن العمل في المصانع غير صحية لذلك قال أحدهم وكان يعمل مصححا في مطبعة " لقد تسممت من الهواء الفاسد، ورائحة العفونة، ورائحة العرق الانساني"[[3]](#footnote-3)، فقد كانت المصانع قليلة الإضاءة وسيئة التهوية. وكانت بعض المصانع تشغل الأدوار السفلية لذلك كان العامل يئن تحت برد الشتاء وحرارة الصيف. لذلك وصفت هذه المصانع بالثكنات العسكرية.كما أن الآلات كانت تزعج بضوضائها العمال مما يسبب لهم أمراض الاذن والصداع، فضلا عن أمراض الصدر، ناهيك عن حوادث العمل.

ومن مظاهر بؤس أفراد هذه الطبقة تدهور أجورها رغم طول ساعات العمل ورغم الاشتغال ليلا، غير أن أشد الظواهر الاجتماعية بؤسا والتي رافقت ميلاد الثورة الصناعية كان هو استخدام النساء والاطفال في المصانع. ويعزى توظيف هذه العناصر كثيرا في مجال الغزل والنسيج إلى كونها أكثر انصياعا للأوامر كما أنها أقل تكلفة من الرجال.

كما ساد الاختلاط بين الجنسين والاعمار. ويرى أدولف بلانكي أن " العاملات في مصانع كروس-روس تربح الواحدة منهن 300 فرنك في السنة، بمعدل 14 ساعة عمل في اليوم الواحد على أنوال تكون معها العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجليها ويديها معا في هذه الحركة الدائمة المتواقتة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون" وفي أحد معامل النسيج في مدينة أنسي، جاء في إحدى العرائض المؤرخة سنة 1848 أن " هناك مراقبون لا وجدان لهم ولا ضمير، يسيمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل، والقسوة الفاحشة بحيث أن عددا كبيرا مهما يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح"[[4]](#footnote-4).

أما ظروف سكن هذه الفئات، فكانت عبارة عن أحياء تفتقر إلى مرافق صحية شأنها في ذلك شان المنازل التي آوتها، بل من العمال من سكن في الاقبية أو حتى مخازن الحبوب، ومنهم من كانت الكهوف تنتظرهم في مدينة ليل وفي ليفربول أو البيت العالي الجدران النتن الساحة في ليون[[5]](#footnote-5)، وفي الداخل فرش من القش وقد لا يجد العامل غطاء يقيه من البرد.

من جهة أخرى تدهور مستوى معيشة الطبقة العاملة من مأكل وملبس، فكانت وجبة غذاء العامل تتكون من الخبز والبطاطس والماء وليس بوسعهم شراء اللحم أو شراء النبيذ إلا في يوم اداء الأجور واليوم التالي على الأكثر[[6]](#footnote-6).وربما لم يكن بوسع البعض شراء الخبز خاصة زمن الأزمات وذلك بسبب ضعف القدرة الشرائية الناجم عن تراجع الاجور وارتفاع تكاليف المعيشة.

وفي مجاعة 1845 -1846 أخد العمال بنبش جيف الخيل وأكلوا لحم الكلاب والهررة[[7]](#footnote-7)، وكثيرا ما صادف أدولف بلانكي[[8]](#footnote-8) أطفالا وقد شاخوا وهم أحداثا بفعل قساوة العمل، وقد ضمرت أجسادهم وقصرت قامتهم بحيث لا يستطيع المرء أن يتبين، ولو بصورة تقريبية، أعمارهم كما لاحظ في مدينة ليل صبية احدودبت ظهورهم وتقوست أجسامهم، وشوهت أعضاؤهم، معظمهم عرايا ليس يستترون به[[9]](#footnote-9)، وقد فشت بينهم الامراض على اختلاف أنواعها: كمرض الخنازير والزهري والتدرن الرئوي، وراحت تحصدهم حصدا بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بغاء البنات من الموارد العادية التي يعولن عليها عادة"[[10]](#footnote-10).

من جهة أخرى، انتشرت الجريمة في صفوف العمال فمن أصل ثلاث مواليد في باريس يولد واحد سفاحا، وواحد من خمسة في مدينة ميلهوز عام 1827. ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل[[11]](#footnote-11).

ويروي اشيل بينو أن معظم العمال يشاهدون أولادهم يموتون دون أن يبالوا بشيء وأحيانا بكل ارتياح"[[12]](#footnote-12).

فانتشر المعوزون وملتمسي الصدقات في الشوارع بعد فرارهم من مقرات العمل أو ممن لم يجدوا فرصا للشغل.

أمام هذا الوضع وما ترتب عنه من شعور العمال بفداحة الظلم والاستغلال الممارس عليهم، بدأت بوادر الوعي الطبقي و التضامن والتآزر في التشكل بين صفوفهم بغية الدفاع عن مصالحهم المشتركة.

وبقدر ما شكلت البورجوازية العدو اللدود للعمال، فإن الالة كانت بدورها كذلك، فانخرط العمال في سلسلة من الاضرابات عرفت بحركة تدمير الآلات والمصانع[[13]](#footnote-13) سواء في بريطانيا التي اصدرت قانونا يجرم تدمير الآلات سنة 1869، أو في عرفت فرنسا التي شهدت الظاهرة نفسها[[14]](#footnote-14)

1. النتائج السياسية

بقدر ما حرر القرن التاسع عشر الانسان من قيود النظام القديم وتقاليده البائدة، فإنه في الوقت ذاته لم يفلح في القضاء على الطبقية الصارخة ولم يستجب لتطلعات الملايين من العمال والفلاحين التواقين إلى مزيد من الحرية والعدالة الاجتماعية التي بشرت بها البورجوازية. ليستمر الصراع الطبقي بين الطبقة العاملة الوليدة والبورجوازية التي تنكرت لشعارتها ومبادئها التي رفعتها في وجه الأنظمة الملكية الاستبدادية.

و على الرغم من تنامي الأفكار الليبرالية بسبب الثورة الفرنسية وتداعيات توسعات نابليون وانتشار المذهب الفردي بشكل كبير في مختلف ربوع البلاد الاوربية، فإن ذلك لم يمنع من بروز أفكار اجتماعية مضادة للفكر الليبرالي.فقد ظهرت الايديولوجيات الاشتراكية في الفترة الممتدة ما بين 1815 و1848.وقد اعتقد الفلاسفة الاشتراكيون أن الوقت حان لإعادة تصحيح ما أفسدته الرأسمالية والبورجوازية التي تنكرت لشعاراتها من حرية ومساواة وغيرها وما خلقته من أوضاع مؤلمة وصعبة للعمال وغيرهم.

لقد وجهت تلك الأحزاب نضالها صوب جبهة أساسية وهي ضرورة تحرير الطبقة العاملة من اسار الهيمنة والاستغلال الرأسمالي، فانصبت جهودها على نقد الملكية بوصفها الداء الذي يقف وراء كل مآسي الطبقات الفقيرة، لذلك يمكن فهم العلاقة الوطيدة بين الحركة العمالية والايديولوجية الاشتراكية.

ففي صلب المعاناة التي عاشتها الطبقة العاملة، وانعكاس الازمات الدورية للنظام الرأسمالي ولدت أفكار لدى بعض الفلاسفة حول جدوى هذا النمط الانتاجي؟ ومدى امكانية استبداله بنمط أكثر استقرارا وعدالة؟ من ثمة أمكن القول إن النظام الاشتراكي هو انتقاد علمي لدعائم الرأسمالية أي للملكية الفردية بشكل خاص والتي تدعو الاشتراكية إلى تقييدها بمقتضيات المصلحة العامة، وفي الوقت نفسه فالاشتراكية احتجاج أخلاقي ضد آثارها الاجتماعية للرأسمالية.

أمام هذه الانتقادات دعا الفكر الاشتراكي إلى تأسيس نظام اقتصادي جديد يجعل ضمن أولوياته التركيز على الجوانب الاجتماعية ويبتعد ما أمكن مما هو سياسي على الاقل إلى حدود 1848.( أفكار بردون على سبيل المثال)، غير أن الفكر الاشتراكي بدأ يهدف بعد ذلك إلى السيطرة على الحكم بشكل يتيح للأغلبية أن تحكم الأقلية.

تأسست الاممية الاشتراكية الاولى سنة 1864 بهدف توحيد نضالات الطبقة العمالية العالمية بحكم تقاسمها نفس المصير وضرورة ربط كفاحها على المستوى الدولي( ضمت حوالي 5 آلاف عضو)، وتم حلها سنة 1876 ثم حلت محلها الاممية الثانية التي ستحل بدورها عام 1916، بسبب مواقف بعض الاحزاب الديموقراطية ذات المنحى الاشتراكي من الحرب العالمية التي رفضها لينين ومعه البلاشفة.

أما الاممية الثالثة، فأسست سنة 1919 واستمرت إلى حدود 1943 وتشكلت بالخصوص من الاحزاب اللينينية والشيوعية.ومن المفكرين الاشتراكيين سان سيمون وفورييه لويس بلان ...

قام العمال بردود فعل قوية تجاه صمت البورجوازية وعدم اكتراثها بوضعهم العام واصرارها على قمع الحريات النقابية من خلال سلسلة من القوانين الصارمة.

وتميزت ردود فعلهم خاصة في فرنسا بطابعها الثوري، لذلك لم تمنع القوانين الفرنسية العمال من الانتظام والتظاهر في السر أو العلن.وانتظموا في إطار جمعيات خيرية لكن بأهداف نقابية وسياسية.

كما تفجرت اضرابات عمال الحرير في ليون عام 1831، انظم إليها عمال الصناعات الاخرى ( 30 الف متظاهر) واندلعت المواجهات بينهم وبين الجنود الذين صوبوا أسلحتهم ضد المتظاهرين و قمعت السلطة هذه الأحداث و قتل حوالي 60 من المحتجين الذين وصفوا ب " البرابرة" و" الذين يشكلون خطرا" على المجتمع و " القائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضها" وهي عبارات مقيتة وعنصرية[[15]](#footnote-15)

نجم عن ذلك الغاء الحكومة اتفاق الاجور وطرد من المدينة أزيد من 10 آلف عامل ، بعدها اندلعت مظاهرة عمال الخياطة سنة 1833.

كما ظهرت أصوات تطالب بقمع المظاهرات ومن شدة خوف أصحاب الاملاك في باريس سنة 1834 أن أعلن تيير عاليا:" لا مكان للرحمة قط"، كما راح الجنرال بوجو يصرح : يجب قتل الجميع، لا رحمة على الاطلاق. كونوا بدون شفقة...يجب القضاء على 3000 من العصاة"[[16]](#footnote-16).

كما انخرط العمال في ثورة 1848 التي أطاحت بالملك لويس فيليب رغم القمع الذي كان من نصيبهم، وأشركوا في الحكومة المؤقتة ومنهم لويس بلان. لقد لفتت هذه المحطة أنظار الرأي العام إلى المسألة الاجتماعية، وشكل ذلك بداية تدخل الدولة لتنظيم علاقات الانتاج والعمل.

أما في انجلترا، فقد كانت التنظيمات العمالية أقدم عن نظيراتها الفرنسية، اذ ظهرت اعتبارا من سنة 1770 رغم إصدار البرلمان قانون تجريم التجمعات خاصة مع تنامي أشكال التنظيمات العمال، الذين اضطروا إلى تغيير تكتيكهم بإنشاء جمعيات المعونة المتبادلة كشكل من أشكال التحايل على القوانين.

لقد تشكلت ارهاصات الروح النقابية وسط تلك التنظيمات مثل رابطة سليمان المعروف أعضاؤها باسم Gavots ورفاق العمل، ودورة فرنسا التي حاولت التشبث بروح التضامن فيما بين اعضاء المهنة الواحدة[[17]](#footnote-17).

فوسط هذه الرابطات والاخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي هدفت إلى تخفيف الاضرار والاذى الذي يتعرض له أبناء المهن كحوادث الشغل والمرض والبطالة وذلك عبر صناديق خيرية تغديها التبرعات.

ففي فرنسا عدت حوالي 132 جمعية مهنية ضمت حوالي 11000عضو. وإن كانت تضم في الغالب المهنيين المحترفين وذووا المهارات العالية، حيث ظهرت في فرنسا تعاونيات اهمها" الرواد المنصفون" ثم الاتحاد النقابي الوطني الكبير[[18]](#footnote-18) .

لقد اقتنع العمال بأن الآلة هي العدو الاول، نظرا لما تسببه لهم من ضرر وإساءة، فمن انجلترا التي عم فيها استعمال الآلة أوائل القرن 19، ظهرت لدى العمال نزعة تحطيم الماكينات بالمصانع[[19]](#footnote-19).لذا تكاثرت حركة تحطيم الماكنات في فرنسا وبلجيكا ورينانيا وسويسرا.فقد انطلقت الحركة من مدينة فرفييه في آب عام 1830 مطالبة بتحطيم الماكنات.كما طالب عمال المطابع، الذين تمردوا على الملك شارل العاشر في تموز 1830، بالتخلي عن المطابع الآلية.

فالعهد عهد غليان سواء في المدن أو الأرياف، فقد انضم عمال الكرمة إلى المظاهرات احتجاجا على توحيد الرسوم عام 1830 والثورات التي تفجرت في بلجيكا ما بين 1845-1846 في المقاطعة الفلمنكية عمت المد والبوادي[[20]](#footnote-20) .

من جهة أخرى، اندلعت اضرابات الفحامين في مناجم انزين واللوار أو في المناطق الانجليزية، كما خاض العمال اضرابات في ولايات البيمونت ولمبارديا والبندقية في الاشهر الاولى من سنة 1848.

لذلك شدد انجلز على قائلا: إن الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية برز الى الصف الاول في تاريخ بلدان أوروبا تقدما وتطورا"[[21]](#footnote-21).

ختاما لما سبق أمكن القول إن التغيرات التي مست الحياة الاجتماعية والسياسية بأوروبا عدت انعكاسا أمينا للتطورات التي شهدتها البنى التحتية بفعل تغيير النمط الانتاجي السائد القائم اساسا على النشاط الصناعي والمالي.كما أن البورجوازية لم تكن وليدة هذا القرن، بقدر ما كانت قائمة من ذي قبل.

إلا أن المشهد الاكثر بروزا تمثل في ميلاد الطبقة العاملة نتيجة الهجرة القروية والمدن الصناعية التي تناسلت في مختلف بلدان أوروبا الغربية. و ستخوض هذه الطبقة سلسلة من الاحتجاجات في اطار الروابط الحرفية ثم الاطارات النقابية في سبيل تحسين أوضاعها العاملة وبدعم من الاحزاب الاشتراكية والشيوعية

1. - أحمد حسن البرعي "كتاب الثورة الصناعية وآثارها الاجتماعية والقانونية"، دار الفكر العربي، القاهرة، 1982، ص 174 [↑](#footnote-ref-1)
2. - تاريخ الحضارات العام ج6 ص 83 [↑](#footnote-ref-2)
3. - أحمد حسن "الثورة الصناعية وآثارها"، ص 283 [↑](#footnote-ref-3)
4. - روبير شنيرب "تاريخ الحضارات العام"، ج6 ص 89-90 [↑](#footnote-ref-4)
5. - نفسه [↑](#footnote-ref-5)
6. - أحمد حسن " الثورة الصناعية" ، 328 [↑](#footnote-ref-6)
7. - روبير شنيرب، المرجع السابق، ص 91 [↑](#footnote-ref-7)
8. - صحفي فرنسي ولد بمدينة نيس سنة 1798 وتوفي سنة 1854 [↑](#footnote-ref-8)
9. - روبير شنيرب، المرجع السابق ص 91 [↑](#footnote-ref-9)
10. - روبير شنيرب، "تاريخ الحضارات العام"، ج6، ص 91 [↑](#footnote-ref-10)
11. - نفسه [↑](#footnote-ref-11)
12. - نفسه [↑](#footnote-ref-12)
13. - أحمد حسن "الثورة الصناعية"، ص 334 [↑](#footnote-ref-13)
14. - نفسه، ص 336 [↑](#footnote-ref-14)
15. - روبير شنيرب "تاريخ الحضارات العام"، ج6 ، ص 93 [↑](#footnote-ref-15)
16. - نفسه، ص94 [↑](#footnote-ref-16)
17. - نفسه، ص 92 [↑](#footnote-ref-17)
18. - روبير شنيرب "تاريخ الحضارات العام"، ج6، ص 92 [↑](#footnote-ref-18)
19. - نفسه [↑](#footnote-ref-19)
20. - نفسه، ص 92-93 [↑](#footnote-ref-20)
21. - نفسه، ص 93 [↑](#footnote-ref-21)